الفصل الخامس

الزَّوجة بين البيت والحياة الاجتماعية

البحث الأول:

الضوابط الشرعية لعمل المرأة في المجتمع[1]

ليس في الإسلام ما يمنع المرأة أن تكون تاجرة، أو طبيبة، أو مدرّسة، أو محترفة لأي حرفة تكسب منها الرزق الحلال ما دامت الضرورة تدعو إلى ذلك، وما دامت تختار لنفسها الأوساط الفاضلة، وتلتزم خصائص العفة التي أسلفنا بعضها.

وعيب هذه القضية هو العيب الذي نلمحه في كل موضوع من مشكلات المرأة، إذ لا ينظرون في شيء من ذلك إلى الإصلاح، بل يخضعون للهواجس التي لا تفتأ تهمس في سرائرهم بأن المرأة عندنا لا تبلغ أن تكون راقية إلا إذا صارت تاجرة، وطبيبة، ومحامية، الخ...

ولو أن لدى هؤلاء أقل نصيب من نور البصيرة لعرفوا مقاييس الإصلاح الحق، ولبدت لهم شارات الرقي الصحيح ومعانيه.

إن رقي المرأة الحق منوط برقي إنسانيتها: ثقافة عقلها، وسمو خلقها، وصفاء قلبها، وطبعها.. ومنوط كذلك برقي ما تزاول من عمل في هذه الحياة.. ورقي العمل ليس مقيساً بما اصطلح الناس عليه أنه رقي، بل مقيس بحقيقة المثل العليا التي تبعث عليه أو تُبتغَى من ورائه!

---

(١) المرأة بين البيت والمجتمع: للخولي ص: ١٢٢-١٢٧/ ط. دار الفتح - بيروت.

فإذا رحت تبحث عن حقيقة الرقي الذي تجنيه المرأة في المجتمع من هجر البيت، إلى السوق والعيادة والمكتب الخ.. لا تجد إلا الخسارة الظاهرة والصفقة المردودة البائرة..

لا مانع أن تعمل المرأة.. ولكن الحياة تخصص... وخير التخصص وأنفعه ما جاء من صنع الخالق وإنعامه.. فإذا خالفنا ذلك التوجيه، وخرجنا عليه؛ فقد غيَّرنا خلق الله في نفوسنا، وتمردنا على سنته، وأخطأتنا المنافع وأخطأناها، ومن عرض صفحته للحق هلك.

لقد خرجت المرأة الغربية إلى السوق والمصنع والشارع والمرقص، تبتغي في ذلك وغيره لقمة العيش!.. فماذا صنعت لنفسها من كرامة، وماذا صنع لها الغرب؟ لقد أرخصوها، وابتذلوا إنسانيتها وأهدروا كل قيمة أدبية لها!

فسكرتيرة المكتب فتاة جميلة، ولا يغني عنها فتاة أخرى دونها في الجمال ولو كانت أذكى منها وأفضل.

وبائعة المتجر فاتنة مثيرة لتثير رغبات الشراء ورغبات الغرائز جميعاً..

والجالسة إلى كيس النقود لا تصل إلى منصبها العتيد إلا بكفاءة واحدة، هي كفاءة أنوثتها في الإغراء وإرضاء الزبائن..

فما معنى هذا كله؟

معناه أن القوم يستأجرون من الفتاة أو المرأة أنوثتها وخصائص طبيعتها، لتؤدي في الاقتصاد دوراً معيباً ينحرف بها عن الكرامة ولا يمتّ إلى عوامل الاقتصاد الشريف بصلة.

أو معناه أنهم لم ينظروا إليها إلا على أنها أداة ذات أنوثة قديرة على الإثارة ومضاعفة الكسب.. فأي ابتذال للمرأة وأي سقوط بقدرها الإنساني أبشع من هذا السقوط؟

إنه الرقيق الحر يساق إلى أسواق النخاسة تحت سياط الحاجة والفاقة...

يساق لا للخدمة في المنازل، بل للابتذال في المتاجر؛ حيث تعرض الفتاة أثمن خصائصها - كأنثى - سلعة إلى جانب السلع لقاء اللقمة التي تقيم أوَدها!!..

وأي بؤس للمرأة وإهدار لقيمتها حين تحل في المتاجر الكبرى محل الخشبة التي تعلق عليها الملابس، أو الدمية التي تعرض عليها الأزياء؟.. إنها دمية حية يلبسونها من ملابس المتجر ما يريدون ترويجه والدعاية له؛ على أن تكون المسكينة فارعة القوام، رشيقة القد، رائعة الحسن، فاتنة الملامح لتفيض من جمالها جمالاً على ما ألبسوها من الملابس، ولتعرضه أحسن العرض أمام زائري المتجر على ما يريدون، مقبلة أو مدبرة.. غادية أو رائحة..!

ألهذا خلق الإنسان؟!.. أوَهذه هي قيمته في حضارة المادة ووثنية المال؟ أوَهذا هو ما يراد لنا أن نقلّده؟

إن المرأة إنسان كريم، وأسمى ما فيها إنسانيتها الرفيعة؛ وقد قضت سنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة.. وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات: أماً، وزوجة، وربة بيت.. وبهذا تهتف غريزة المرأة، ويشهد وجدانها الأزلي العميق.. فإذا بنينا مكانها في الحياة على هذا الأساس، وقررنا لها حقوقها على هذا النهج، وفرت كرامتها، وسبغت سعادتها وهناءتها.. فإن كانت أماً ففي طاعتها رضوان الله، وتحت أقدامها الجنة.. وإن كانت زوجة صالحة فهي أفضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله[1]! فماذا وفرت لها حضارة الرقيق وأسواق النخاسة من كل ذلك؟

إن عمل المرأة في البيت - تسوس زوجها، وتربي طفلها، وتدبر معاش أسرتها - سعادة ما بعدها سعادة، وهو بعد ليس بالأمر الذي يقل منزلة عن

---

(١) أعلى الإسلام من قدر المرأة باعتبارها أماً، حتى قال رسول الله ﷺ: «**الجنة تحت أقدام الأمهات**» وأعلى من قدرها زوجة حتى جاء في معنى حديث له ﷺ: «**خير ما يكنزه العبد من دنياه بعد تقوى الله الزوجة الصالحة**».

وقوفها في محل تجاري تبيع الملابس والعطور، أو تلفّ المبيعات في الورق، أو تقبض أثمانها أمام الخزنة!!

إن المرأة في البيت تصنع للطفل رجولته، وخلقه العملي الناجح، وتنشئه على ما تطلب الحياة الكريمة من فضائل... فمن يمنحه ذلك إذا تركته للخدم أو لسواهم ومضت إلى عملها في الخارج؟..

وهي في البيت المصدر الروحي لإشعاع الرحمة والمودة على زوجها - كما ورد في القرآن الكريم - وهي بهذه المثابة المهاد الذي يلقى فيه الحنان والدعة، والعطف، والسكينة، فمن له إذا خرجت وعادت آخر النهار - مثله مهدودة القوى، ضيقة النفس بما لقيت من عناء يومها؟

ليس إشعاع الرحمة والمودة في البيت بالأمر الهين الذي يتصوره المحرومون المحجوبون عن حقائق الأمور، فإن الدنيا كلها بما فيها من ذهب وثروة ومتاع، لا تساوي في ميزان الحق مثقال ذرة، إذا هي خلت من المودة والرحمة...!

ومن سرها في البيت أنها جهاز روحي عجيب، يلقي في روح الرجل أسرار القوة، ومعاني الثقة بالنفس... وإن كلمة واحدة منها - وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران، أو مكائد الرجال - كفيلة أن تمده بطاقات عجيبة من الهمة، والأمل، والثقة بالنفس؛ فإذا هو كأنه إنسان جديد، وبناء غير الذي كان يوشك أن ينهار...!

إن المرأة تستطيع أن تدعم الرجل كل يوم مرة أو مرات!... وهي بقيامها على المهد؛ ورعاية طفولة ولدها، إنما تصنع مستقبل وطنها؛ ولسنا ندري عملاً للمرأة في الحياة يفوق في شرفه، وسمو غايته هذا العمل... ولكنا أصبنا بتقليد الأجانب، فلا نحس أننا أمة راقية إلا إذا رأينا نساءنا وفتياتنا عاملات كادحات، على نحو ما هو معهود عند الفرنجة..!

يقول بعضهم: إنها تكاليف الحياة الباهظة، توجب أن تعمل المرأة إلى

جانب زوجها مساعدة له.. وكأنهم بذلك يتحكمون في معايير السعادة، وحقائق مثلها العليا، ويمسخونها مادية صرفة، تعبد المال والشهوة والترف في محاربيها وكل أنحائها.. ومسخ الحياة على هذا الوجه أخطر ضروب الفساد والشقاء؛ لأنه ارتداد من فطرة الله التي تنشد البساطة والمثل العليا، إلى حياة تنشد التعقيد والتلفيق وعبادة مطالب البدن.

ولقد قامت في أمريكا خبيرة اجتماعية هي الدكتورة «إيدا إلين» تحمل على اشتغال المرأة بالأعمال الحرة - تاركة بيتها وأبناءها - لتساعد زوجها على رفع مستواهم المعيشي، فارتفع مستوى المعيشة، وانحط مستوى التربية والخلق!..

ومضت الدكتورة تقول: إن التجارب أثبتت لزوم الأم لبيتها، وإشرافها على تربية أولادها، فإن الفارق الكبير بين المستوى الخلقي لهذا الجيل، والمستوى الخلقي للجيل الماضي، إنما مرجعه إلى أن الأم هجرت بيتها، وأهملت طفلها وتركته إلى من لا يحسن تربيته... وأنذرت قومها بسوء المصير إذا استمر الحال على ما هو عليه؛ ونادت - بقوة - بضرورة عودة المرأة إلى بيتها، لتزاول فيه شعائر الأمومة، واختصاص الزوجة وربة البيت...

ونحن قد أخذنا بتقليد هؤلاء، وتصديق كل ما يقولون، فها هو ذا قول عالمة من علمائهم وخبيرة من خبرائهم - نقله إلينا منذ أيام صحفي مصري - فلسنا ندري بعد ذلك في سبيل أي غاية نخسر أنفسنا، ونستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!.

إن الدين لا يحرم على المرأة أن تعمل، ولكنه يحرم أن تهجر ميدانها الطبيعي بدون عذر - وهو ميدان لا يجدي فيه سواها - إلى ميدان يعمره الرجل بكل كفاءة ومقدرة، حيث لا حاجة إليها... فلتعش المرأة ميدان العمل العام، ولكن عند الضرورات التي تجعل جهدها فيه أجدى على الأمة من بقائها في ميدانها الطبيعي... أما التقليد السخيف - دون مراعاة لطبائع الأشياء - فتفاهة، ونكسة، لا نرضاها للمرأة أياً كانت، مسلمة أو غير مسلمة.

البحث الثاني:

المعاملة بين الرجال والنساء في ظل التوجيهات القرآنية

للقرآن الكريم شريعته المحكمة في كل نوع من أنواع هذه المعاملات، وله في كل معاملة دستورها الجامع الذي تتبعه تفصيلاته كما تتبع الفروع الأصول.

معاملة الحقوق دستورها الجامع أن الرجل والمرأة سواء في كل شيء، وأن النساء لهن ما للرجال، وعليهن ما عليهم بالمعروف، ثم يمتاز الرجال بدرجة هي درجة القوامة التي ثبتت لهم بتكوين الفطرة وتجارب التاريخ، وليس في هذا الامتياز خروج على شرعة المساواة حين تقضي المساواة بين الحقوق والواجبات وكل زيادة في الحق، تقابلها زيادة مثلها في الواجب، فهي المساواة العادلة في اللباب[١].

ومعاملة النسب دستورها في القرآن الكريم إجلال الأمهات وصيانة البنات عن الجناية على حياتهن، والكراهية لمولدهن وتربيتهن، وإحلال الزوجات محل الأزواج في السكن والمأوى، فلا يعزلن بمكان دون مكانهم، ولا يسومهن الرجل أن يقمن حيث يأبى أن يقيم مع ذويه من الرجال...

ومعاملة الأدب تلخصها في القرآن الكريم كلمتان: المعروف والحسنى... فليس في هذا الكتاب المبين كلمة تنصّ على معاملة للمرأة في حال الرضى والغضب وفي حال الحب والجفاء، وفي حال الزواج والطلاق، لم يصحبها التوكيد بعد التوكيد بوجوب المعروف والحسنى وإنكار الإساءة والإيذاء.

والأساس الذي تبنى عليه هذه المعاملات أهم في الدلالة على روح التشريع من الأحكام والنصوص.. فهو أساس قوامه الاعتراف بالحق لأنه حق وتقديره ميزان الواجب لمصلحة المرأة، ومصلحة الأمة، ومصلحة النوع، غير منظور فيه إلى قوة الطلب أو قوة الإكراه على قبوله، وغير ملحوظ فيه أنه ترويج لدعوة من

---

(١) المرأة في القرآن: لعباس محمود العقاد، ص: (١١٤ - ١١٥) ط. دار الهلال - مصر.

دعوات السياسة، أو ضرورة من ضرورات «الإدارة» الحكومية، في ظرف من ظروف الحرج والمداراة.

وشعور المعاملة القرآنية للمرأة هو دستور «المرأة الخالدة» في وظيفتها النوعية، ووظيفتها التي يصلح عليها البيت والمجتمع، ما استقام نظام البيت ونظام الاجتماع.

البحث الثالث:

الحجاب بين التشريع والتاريخ

من الأوهام الشائعة بين الغربيين أن حجاب النساء نظام وضعه الإسلام، فلم يكن له وجود في الجزيرة العربية ولا في غيرها قبل الدعوة المحمدية، وكادت كلمة المرأة المحجّبة عندهم أن تكون مرادفة للمرأة المسلمة، أو المرأة التركية التي حسبوها زمناً مثالاً لنساء الإسلام، لأنهم رأوها في دار الخلافة. وهذا وهم من الأوهام الكثيرة التي تشاع عن الإسلام خاصة بين الأجانب عنه، وتدل على السهولة التي يتقبلون بها الإشاعات عنه، مع أن العلم ببطلانه لا يكلفهم طول البحث والمراجعة، ولا يتطلب منهم شيئاً أكثر من قراءة الكتب الدينية التي يتداولونها وأولها كتب العهد القديم وكتب الأناجيل[1].

فمن يقرأ هذه الكتب يعلم - بغير عناء كبير في البحث - أن حجاب المرأة كان معروفاً بين العبرانيين من عهد إبراهيم عليه السلام، وظل معروفاً بينهم في أيام أنبيائهم جميعاً إلى ما بعد ظهور المسيحية، وتكررت الإشارة إلى البرقع في غير كتاب من كتب العهد القديم وكتب العهد الجديد. . .

ففي الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن «رفقة» أنها رفعت

(١) المرأة في القرآن: لعباس محمود العقاد، ص: (٦٢ - ٦٧) ط. دار الهلال - مصر .

عينيها فرأت إسحاق «فنزلت عن الجمل وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائي؟ فقال العبد: هو سيدي! فأخذت البرقع وتغطت».

وفي الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين أيضاً أن تامار: «مضت وقعدت في بيت أبيها. ولما طال الزمان.. خلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت..».

وفي النشيد الخامس من أناشيد سليمان تقول المرأة: «أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى عند الظهيرة... ولماذا أكون كمقنعة عند قطعان أصحابك؟» وفي الإصحاح الثالث من سفر أشعيا: أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة بِرَنينِ خَلاَخِيلهنّ بأن: «ينزع عنهم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب». ويقول بولس الرسول في رسالة كورنثوس الأولى: أن النقاب شرف للمرأة «فإن كانت ترخي شعرها فهو مجد لها، لأن الشعر بديل من البرقع..».

وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلقى الغرباء وتخلعه حين تنزوي في الدار بلباس الحِدَاد. فلا حاجة إلى التوسع في قراءة التاريخ للعلم بأن نظام الحجاب سابق لظهور الإسلام. لأن الكتب الدينية التي يقرأها غير المسلمين، قد ذكرت عن البراقع والعصائب ما لم يذكره القرآن الكريم، ولم يكن البرقع مما ذكره القرآن الكريم فيما أمر به من الحجاب.

فإذا بحث القوم عن تاريخ الحجاب في غير الكتب الدينية فالكتب المخصصة لهذا البحث مملوءة بأخبار الحجاب الذي كان يتخذ لستر المرأة أو يتخذ للوقاية من الحسد، ويشترك فيه الرجال والنساء في بعض الأحيان.

وأخبار البرقع جزء من الأخبار المستفيضة عن حجاب العزلة في المنازل وخارج المنازل، في الطرقات والأسواق، وقد كان اليونان ممن فرض هذه العزلة على نسائهم، وكان الرومان - على ترخصهم في هذا الأمر - يسنون القوانين التي تحرم على المرأة الظهور بالزينة في الطرقات قبل الميلاد بمائتي

سنة، ومنها قانون عرف باسم «قانون أوبيا» يحرم عليها المغالاة بالزينة حتى في البيوت.

ولقد غلا المترفون من الأقدمين في حالي الحجاب والتسريح محجبو المرأة ضناً بها، وسرحوها هواناً عليهم لأمرها، وأوشك إعزازها أن يكون شراً عليها من هوانها، فإذا عزت عندهم فهي طير حبيس في قفص مصنوع من معدن نفيس أو خسيس، وإذا هانت عليهم سرحوها ليبتذلوها في خدمة كخدمة الدابة المسخرة، حريتها الموهومة ضرورة من ضرورات التسخير الاستعباد.

جاء الإسلام والحجاب في كل مكان وجد فيه تقليد سخيف وبقية من بقايا العادات الموروثة، لا يدري أهو أثرة فردية أم وقاية اجتماعية، بل لا يدري أهو مانع للتبرج وحاجب للفتنة أم هو ضرب من ضروب الفتنة والغواية. فصنع الإسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه، وتخلفت بقاياه بغير معنى. فأصلح منه ما يفيد ويعقل، ولم يجعله كما كان عنواناً لاتهام المرأة، أو عنواناً لاستحواذ الرجل على ودائعه المخفية. بل جعلها أدباً خلقياً يستحب من الرجل ومن المرأة، ولا يفرق فيه بين الواجب على كل منهما، إلا لما بين الجنسين من فارق في الزينة واللباس والتصرف بتكاليف المعيشة وشواغلها.

فالمؤمنون مطالبون بأن:

﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۚ﴾[1].

والمؤمنات مطالبات بذلك:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ...﴾[2].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

وقد نهى الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة، ونهى النساء عن مثلها: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[١]، والمفهوم من هذا النهي لم يختلف عليه أحد من المخاطبين به ولا من المفسرين لآيات الكتاب. يقول الرازي في: «الكشاف» - وهو من التفاسير المتقدمة -:

فإن قلت: لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قلت: لأن سترها فيه حرج فإن المرأة لا تجد بُدّاً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها. خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها، وخاصة الفقيرات منهنّ. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[٢] يعني إلّا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور، وإنما سومح في الزينة الخفية أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم، ولما في الطباع من النفرة عن مماسّة القرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك.

والمتأخرون من المفسرين على مثل ذلك الفهم للزينة التي يجوز إظهارها، ومن أحدثهم الأستاذ طنطاوي جوهري صاحب تفسير الجواهر حيث يقول: «إلا ما ظهر منها عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم والكحل والخضاب في الكف وكالوجه والقدمين، ففي ستر هذه الأشياء حرج عظيم، فإن المرأة لا تجد بُدّاً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها، لا سيما في مثل تحمل الشهادة والمعالجة والمتاجرة وما أشبه ذلك، وهذا كله إذا لم يخف الرجل فتنة. فإن خافها غضَّ بصرَهُ..».

والمفهوم من الحجاب على هذا واضح بغير تفسير، فليس المراد به إخفاء المرأة وحبسها في البيوت، لأن الأمر بغض الأبصار لا يكون مع إخفاء النساء وحبسها وراء جدران البيوت وتحريم الخروج عليهن لمزاولة الشؤون التي تباح

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. (٢) سورة النور، الآية: ٣١.

لهن، ولم يكن الحجاب كما ورد في جميع الآيات مانعاً في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أن تخرج المرأة مع الرجال إلى ميادين القتال، ولا أن تشهد الصلاة العامة في المسجد، ولا أن تزاول التجارة ومرافق العيش المحالة للرجال والنساء على السواء، ومهما يكن من عمل تزاوله المرأة في مصالحها اللازمة، فلا عائق له من الحجاب الذي أوجبه القرآن الكريم والسنّة المطهرة، ولا غضاضة عليها فيه، لأنه يطلب من الرجل فيما يناسبه كما يطلب منها فيما يناسبها.

ومن الحسن أن نذكر أنّ الأمر بالقرار في البيوت إنما خوطب به نساء النبي عليه الصلاة والسلام، لمناسبة خاصة بهن لا تعرض لغيرهن من نساء المسلمين، ولهذا بُدئت الآية بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1] ثم اقترن هذا الأمر بأمر آخر يعم الرجال الذين يفدون على النبي ﷺ، فيدخلون مسكنه بغير استئذان وفيه زوجاته رضوان الله عليهن، فيدخل الزائرون ويخاطبون آله على غير إذن منهن، ولذلك نُهي الزائرون أن يدخلوه حتى يُؤْذَنَ لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾[2].

وهذا أدب من آداب الزيارة ينبغي أن يتأدّب به الزوار كيفما كانت تقاليد الحجاب في غير البيوت.

فلا حجاب إذن في الإسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة، ولا عائق فيه لحرية المرأة حيث تجب الحرية وتقضي المصلحة. وإنما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء، وما من ديانة

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

ولا شريعة يحمد منها أن تأذن بالتبرج ولا تنهى عنه، أو يحمد منها أن تغضي عنه ولا تفرض له أدباً يهذبه ويكف أذاه..

فمثل هذا التبرج في الجاهلية الأولى هو الذي منعه الرومان بقانون، وتغاضوا عنه يوم تغاضوا عن الفتن والملذات التي أطاحت بالدولة وأعقبت العالم سآمة من نزوات الجسد جاوزت حدودها، وأوشكت أن تنقلب من نقيض الإباحة لكل شيء إلى نقيض الحرمان من كل شيء.

ومثل هذا التبرج هو الذي توعده النبي أشعيا بالدمار الذي يعصف بالزينة فلا يبقى لها باقية، فقال: «... من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق غامزات بعيونهن، خاطرات في مشيهن، يخشخشن أرجلهن، يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعري الربّ عورتهن، وينزع السيد في اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق والخناجر الشمامات والإحراز وخزائم الأنوف..».

ومثل هذا التبرج هو الذي تمنعه جميع الشرائع على الورق حيث تسميه «التهتك» أو تسميه الإخلال بناموس الحياء، ثم لا تفلح في منعه لأنها تمنعه بعصا القانون ولا تمنعه بوازع الأخلاق والإيمان...

البحث الرابع:

عمل البيت واجب نسائي

العمل داخل البيت ورعاية شؤونه من واجب المرأة واختصاصها.

فقد ألزم الرجل بكسب المال وجلب القوت، ولا يعقل أن يكلف أيضاً بالقيام على أمور البيت وتدبير مصالحه.. وللعلماء في هذا الشأن آراء مفصلة حول خدمة المرأة بنفسها أو اتخاذ خادم لها.

ذكر بعضها الإمام ابن حجر تعليقاً على قصة فاطمة بنت الرسول صلوات

الله وسلامه عليه حين أتت تسأل أباها أن يهبها خادماً يُخفِّفُ عنها ما تجده من تعب. قال: قال الطبري: يؤخذ منه أن كل من كانت لها طاقة من النساء على خدمة بيتها في خبز أو طحن أو غير ذلك، أن ذلك لا يلزم الزوج، إذا كان معروفاً أن مثلها يلي ذلك بنفسه.

ووجه الأخذ: أنّ فاطمة لما سألت أباها ﷺ الخادم لم يأمر زوجها بأن يقوم بذلك أو يتعاطى ذلك بنفسه. ولو كانت كفاية ذلك إلى عليٍّ لأمرَهُ بهِ.. وحكى ابن حبيب عن أصبغ، وابن الماجشون عن مالك، أن خدمة البيت تلزم المرأة، ولو كانت الزوجة ذات قدرٍ وشرف، إذا كان الزوج مُعْسَراً.

قال: ولذلك ألزم النبي ﷺ فاطمة بالخدمة الباطنة، وعليّاً بالخدمة الظاهرة.

وحكى ابن بطّالٍ أن بعض الشيوخ قال: لا نعلم في شيء من الآثار أن النبي ﷺ قضى على فاطمة بالخدمة الباطنة. وإنّما جرى الأمر بينهم على ما تعارفوه من حسن العشرة وجميل الأخلاق.

وأما أن تجبر المرأة على شيء من الخدمة فلا أصل له، بل الإجماع منعقد أن على الزوج مؤونة الزوجة كلها... وقال الشافعي والكوفيون: يفرض لها ولخادمها النفقة إذا كانت ممّن تُخْدَمُ.

وقال مالك والليث ومحمد بن الحسن: يفرض لها ولخادمها إذا كانت خطيرة «أي ذات جاه وحسب»..

وأهل الظاهر قالوا: ليس على الزوج أن يخدمها ولو كانت بنت الخليفة!.

وحجة الجماعة قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1]. وإذا احتاجت إلى من يخدمها فامتنع لم يعاشرها بالمعروف، والذي يتضح أن تحكيم العرف في ذلك لازم[2].

فمن احتاجت إلى الخادم وقدر زوجها عليه فلا وجه للمنع من خدمتها.

ومن احتاجت إليه وقدرت عليه دون زوجها، كأن يكون لها كسب أو مال،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) فتح الباري ج ٩/ ٤١٨.

فلتتخذ خادماً على نفقتها.. وينبغي أن يجري الأمر على ما تعارفوه من حسن العُشْرة وجميل الأخلاق.

البحث الخامس:

آداب معاملة الزوج لزوجته

١ - حسن المعاشرة:

قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١]. وكلمة «عسى» التي للرجاء تجعل الأمل في الصبر على أخطاء الزوجة موضع رضا الله الذي يجعل الرجاء في تعويضه عن الصبر كثيراً.

وقد روى ابن ماجه والترمذي من حديث عمر بن الأحوص الجشمي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع: «**اسْتَوْصُوا بالنِّساء. ألّا إنّ لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن، وحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون**»[٢].

والعواني: جمع عانية، وهي الأسيرة، شبه النبي ﷺ المرأة في دخولها تحت الرجل بالأسيرة. وروى ابن حبان في صحيحه عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ**»[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) ابن أبي شيبة في مصنفه ج ٥/ ٢٧٦، وابن ماجه رقم ١٨٥١، وآداب الزفاف للشيخ ناصر (١٤٩).

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣١٤، وعزاه للترمذي وابن ماجه والطبراني، انظر الصحيحة (٢٨٥).

وفي رواية: «**خيركم ألطفكم بأهله**». وكان رسول الله ﷺ شديد اللطف بالنساء، وفي سفر من أسفاره قال لسائق الإبل: «**يا أنجشة رفقاً بالقوارير**» يعني النساء في الهوادج[١].

وقد يُروى أنّ رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو خلق زوجته فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه وعمر ساكت لا يرد عليها؛ فانصرف الرجل راجعاً، وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين فكيف حالي؟ وخرج عمر فرآه مولياً عن بابه فناداه وقال: ما حاجتك أيها الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خُلق امرأتي واستطالتها علي، فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟ فقال عمر: يا أخي، إني احتملتها لحقوق لها علي، إنها طباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها، ويسكن قلبي لها عن الحرام، فأنا أحتملها لذلك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك زوجتي. قال عمر: فاحتملها يا أخي فإنما هي مدة يسيرة.

وفي الصحيح قال ﷺ: «**لا يفركنّ مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ كَرِه منها خُلُقاً رضي منها آخر**»[٢]. وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنَّهُنَّ خُلقنَ من ضلعٍ أعوج، وإنّ أعوجَ شيء في الضلع أعلاه. فإنْ ذهبتَ تقيمُهُ كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً**».

وفي بعض روايات الحديث: «**المرأة كالضّلع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج**». والنبي بهذا التصوير يختصر على الرجل الطريق الطويل الشاق في محاولة تقويم المرأة على المثل الأعلى الذي يمكن أن

(١) صحيح الجامع الصغير ج ٢/ ١٢٩٧، برقم ٧٨٥٨.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٧٤١، وعزاه لأحمد ومسلم.

يتم في الرجل، إن شجرة الورد جميلة بشوكها، والذي يطلب شجرة ورد بلا شوك عابث غبي، والذي يزعم أن شوك شجرة الورد يجعلها قبيحة لا تصلح للاستمتاع بها مختل المزاج منحرف الطبع، والمرأة ضعيفة، والضعف يحتمي بالشوكة، كالوردة ضعيفة تحتمي بالشوكة.

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

ويحكي الإمام الغزالي قصة لا إسناد لها. ولكنها تجسّم لنا جزاء الصبر على النساء، وأنهن عندما يبتلى بهنّ الرجل يكنّ غسلاً لخطاياه فيقول:

وفي أخبار الصالحين أن قوماً دخلوا على عابدٍ صابرٍ، فأضافهم، فكان يدخل ويخرج إلى منزله، وامرأته تستطيل عليه، وهو ساكت فتعجبوا من ذلك فقال: لا تعجبوا، فإني سألت الله تعالى وقلت: ما أنت معاقب لي به في الآخرة، فعجِّله في الدنيا، فكانت عقوبتي بنت فلانٍ، فتزوجتُ بها وأنا صابر على ما ترون منها.

وفضلاً عما رواه الغزالي، ففي القرآن من عنت الزوجات حديث مرير عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[1]. ثم قال الغزالي: وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب، وتحسين الخلق، فإن المنفرد بنفسه، أو المشارك لمن حسُن خلقه، لا تتشرح منه خبائث النفس الباطنة ولا تنكشف بواطن عيوبه.

فحق على سالك طريق الآخرة أن يجرب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحركات واعتياد الصبر عليها، لتعتدل أخلاقه، وترتاض نفسه، ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه. والصبر على العيال - مع أنه رياضة ومجاهدة - تكفل لهم، وقيام بهم، وعبادة في نفسها. فهذه أيضاً من الفوائد، ولكن لا ينتفع بها إلا أحد رجلين:

● إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق، لكونه في بداية الطريق. فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة، وترتاض به نفسه.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.

وكأن بالغزالي يجعل من المرأة المشاكسة مركز تدريب على الاحتمال وسعة الصدر لمن كان في حاجة إلى هذا التدريب.

● وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم، والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا يتعدى خيرها إلى غيره.

فأما الرجل المهذب الأخلاق، إما بكفاية في أصل الخلقة كمن صان الله نشأته في الدين منذ خلقه، أو بمجاهدة سابقة، إذا كان له سير في الباطن، وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات، فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض أي: غرض مجاهدة النفس أو كسب القوت لآخرين والقيام على تربيتهم، فإن الرياضة هو مكفى فيها.

وأما العبادة في العمل بالكسب لهم، فالعلم أفضل من ذلك لأنه أيضاً عمل. وفائدته أكثر من ذلك، وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب للنفقة على العيال. وهذا لا ينفي أن الزواج مندوب له، للأغراض الأخرى التي شرع لها الزواج، وفي غير المشاكسات من النساء مجالٌ كبير.

وقد حكى الله ﷻ في سورة التحريم ما لقيه نبينا ﷺ من عنت أزواجه، ومتاعب الضرائر ما بلغ الذروة، حتى نزلت آيات السماء تردعهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾(١).

فلا بد - إذن - من الصبر على جنوحهن، ولنا في رسول الله أسوة: فقد كانت أزواجه يراجعنه في الكلام، وتهجره الواحدة منهن إلى الليل.

وفي الصحيحين أن امرأة عمر راجعته فقال: «**أتراجعيني بالكفاء؟ فقالت: إن أزواج رسول الله** ﷺ يراجعنه وهو خير منك. فقال: خابت حفصة وخسرت

(١) سورة التحريم، الآية: ٥.

إن راجعته. ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة أبي قحافة، فإنّها حبّ رسول الله ﷺ، وخوّفها من المراجعة.

وكان ﷺ يقول لعائشة: «**إنّي لأعرف غضبك ورضاك**». قالت: وكيف تعرفه؟، قال: «**إذا رضيتِ قلتِ: لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم**»، قالت: صدقتَ. إنما أهجر اسمك. أي دون غيره من الحب والإخلاص لذاتك الشريفة. وكان يقول لها: «**كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمِّ زرعٍ غير أني لا أطلقُكِ**»[١].

٢ - حق المداعبة والملاطفة:

فذلك يزرع الحب في القلب، وحق تمتيعها باللهو البريء الذي يروح عن نفسها: برحلة أو سمر أو مشاهدة حفل خال مما يغضب الله كمسرحية «المروءة المقنعة» و«على أسوار حطين». دون المسرحيات المليئة بالفاحشة الصارخة بالدعوة إلى السلوك المعوج، وكم في المتاحف من متعة وثقافة، وكم في الريف وحقوله من مشهد رائع، ودعوة إلى الإيمان بالله الذي ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾[٢].

قالت عائشة رضي الله عنها: سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال رسول الله ﷺ: «**أتحبين أن تريْ لعبهم**»؟ قالت: قلت نعم. فأرسل إليهم فجاءُوا. وقام رسول الله ﷺ بين البابين فوضع كفه على الباب، ومدّ يده، فوضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «**حسبك**»؟ وأقول: اسكت مرتين، أو ثلاثاً. ثم قال: «**يا عائشة! حسبك؟**» فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا. فقال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله**» رواه الترمذي والنسائي واللفظ له، والحاكم وقال: رواته ثقات على شرط الشيخين: البخاري ومسلم.

---

(١) صحيح البخاري ج ٧/ ٣٥، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب ٦٤، ومجمع الزوائد ج ٤/ ٣١٨.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ٤ - ٥.

هذا على شرط ألا يتبسط في الدعابة ولين الخُلق إلى حد يفسد خلقها، ويسقط هيبته بالكلية عندها، بل لا بد من مراعاة الاعتدال والتوسط، فكما أنه لا يصلح له أن يظلمهن ويقسو عليهن، وكذلك لا يجوز له أن ينقاد لهن انقياداً كاملاً، ويملكهن زمامه في كل شيء. وفي الحديث: «**ألا هلكت الرجال حين أطاعوا النساء**» رواه مسلم.

قال الحسن رضي الله عنه: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبّه الله في النار.

وقال عمر رضي الله عنه: خالفوا النساء فإن خلافهن بركة، يعني المخالفة في الرأي الذي يصدر عن هوى نسائي، لا في الرأي الذي يصدر عن تجربة، أو الرأي الذي يستند إلى نص شرعي. فالحق أحق أن يتبع.

فبخلق اللطف وحسن المعاشرة يؤدي لها حقها المشروع لها، وبخلق الحزم والقوة يتحقق من القوامة له عليها وصلاحها وصلاح الأسرة كلها.

٣ - أن يكون معتدل الغيرة:

بمعنى أنه لا يتغافل عن الأمور التي تخشى مغبتها ويصعب علاجها إذا أهملت. فلا يسكت على تقصير في واجب، أو ميل إلى سوء، أو تلبس بمنكر، فإن اعتياد هذه الأشياء منها وسكوته عليها مما يؤدي إلى استمرار الأمر المنكر، فيصبح لها خلقاً يصعب علاجه فإن يسكت بعد ذلك يسكت على منكر، وإن ينكر فإنما يحاول الشقاق والقطعية. فلا بد من الوقاية التي تقطع العلة قبل وقوعها، وتوقف الداء قبل سريانه. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

قال الذهبي في الكبائر: أي أدبّوهم وعلموهم ومروهم بطاعة الله، وانهوهم عن معصية الله كما يجب عليكم ذلك في حق أنفسكم. قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

«**ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الديوث، والرِّجْلَةُ من النساء، ومدمن الخمر**». فقالوا: يا رسول الله، أمّا مدمن الخمر فقد عرفناه فما الديوث؟ قال ﷺ: «**الذي لا يبالي من دخل على أهله**». قلنا: فما الرجلة من النساء؟ قال: «**التي تشبّه بالرجال**». وأخرج الذهبي في الكبائر. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء**» وأخرجه النسائي والبراز والحاكم وصححه.

وروى النسائي والبزار وأحمد والحاكم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقرّ الخبث في أهله**» يعني يستحسنه على أهله، نعوذ بالله من ذلك.

في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله تعالى يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله**».

وأخرج الشيخان عن المغيرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ أنا والله أغْيَرُ منه، والله أغْيرُ مني**».

ومن الحرص على عفاف الرجال وبخاصة الشباب، وعلى نفس الزوج من أن يلتهب بالغيرة: ما عليه المحافظات من بناتنا وأخواتنا المسلمات، حيث يحرصن على ألا يوجدن في غرفة الاستقبال، أو المكان الذي ينام فيه الضيف أي آثار من خصائص استعمال المرأة ولبسها.. ويقظتها لدورة المياه حين يطلبها ضيف إذ تكون نظيفة من ثيابها الخاصة، كما هي نظيفة من الأدران، وحرصهن كذلك على ألا تنشر الثياب؛ وبخاصة الملابس الداخلية لهن في مكان واضح يجتمع في مواجهته الشباب أو يلعبون، وإذا لزم الأمر دارت ذلك بالملاءات المغسولة أو بملابس الرجال.. وما إلى ذلك.

إن مثل هذا التصرف دليل على بقية الحس الإسلامي المرهف، ومظهر لأثرةٍ من العفاف والطهر. والغيرة المشروعة «مشروطة بألا تنساق في تيار الظن الذي يدفع إلى المبالغة في الريبة والتجسس وسوء الظن ومحاولة التعنت في

استطلاع بواطن الأمور، فإن ذلك مما يفسد العشرة وينكد الحياة ويؤدي إلى قطع الصلة؛ وذلك ما يبغضه الله ويكرهه. فلا أفضل من إشعار الرجل زوجته بالثقة والتحاشي عما يخدشها، قال عليه الصلاة والسلام: «**إن من الغيرة غيرةً يبغضها الله** ﷻ . . . **وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة**»، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

وهذا داخل - بداهة - دخولاً أولياً تحت عموم النهي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[١].

٤ - النفقة في اعتدال:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[٢]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة (تحرير عبد)، ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك**».

والتحديد بالوسع لأنه هو الذي يبين مقدار الاعتدال والقوام، فقد يكون التصرف حيناً إسرافاً بالنسبة لقوم وتقتيراً بالنسبة لقوم آخرين.

وقاعدة العمل بحسب الوسع هي ما جرى عليه عمل الصحابة وغيرهم من السلف الصالح، اتباعاً لعمل النبي ﷺ. ومن هذا ما روي أنه كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم.

وينبغي ألا يستأثر الرجل بطعام دون أهل بيته، فذلك مما يوغر الصدور، وألا يذكر لهم صفة طعام لا ينوي إحضاره لهم، ويتحرى الحل في الطعام الذي يقدمه لزوجته ففي الحديث: «**أيما لحم نبت من سُحت فالنار أولى به**»، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٣].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٧.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

٥ - القسمة العادلة بين زوجاته:

في النفقة والبيتوتة إذا كان له أكثر من زوجة، فقد كان النبي ﷺ يعدل بين نسائه، وعائشة أحب إليه. وإذا أراد السفر لغزو أو غيره أقرع بين نسائه، فمن خرجت لها القرعة أخذها وكان هذا فضل الله عليها.

ولا ريب أن الذي لا يعدل بين نسائه يحرم إحداهن من شهواتها، وقد يضطرها إلى الانحراف فيبوء بإثمها وإثمه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كانتْ له امرأتَان فمَالَ إلى إحداهما دونَ الأخرى**، وفي لفظ «**ولم يعدلْ بينهما**» **جاءَ يومَ القيامة وأحدُ شقيه مائل**»[(١)].

٦ - الإعفاف بالإشباع الجنسي للزوجة:

وفي الحديث الصحيح: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» ولا يصح للرجل إهمال صحته، فهذا الإهمال ليس تفريطاً في حق نفسه وحده، وإنما هو تعذيب لامرأته عذاباً قد يدمر الأسرة تدميراً يشقى به الأولاد، وليحذر المسلمون من الدّجالين الذين يوهمون ضعاف الثقافة أنهم بالأحجية يعالجون الضعف الجنسي. فالمسألة غذاء جيد، وعند الضرورة منشطات للهرمونات بحبوب أو حقن يصفها الطبيب.

فإذا لم يجد العلاج البدني فهناك عيادات العلاج النفسي، وكم ممن لديهم فتور واسترخاء نجح علاجهم النفسي. وفي كل ما ينفق في هذا السبيل ابتغاء إعفاف الزوجة، ثواب الله تعالى.

وقد حرم جمهور العلماء العزل عن الزوجة الحرة - أي حرموا إنزال المني بعيداً عنها خوف الحمل إلا برضاها وإذنها؛ ففي العزل حرمان من متعة كبيرة هي حق للزوجة، ولا يتوهمن واهم أن العزل سيمنع قدر الله، ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد: «**ما من نسمةٍ قَدَّرَ اللهُ كونها إلا وهي كائنة**»..

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٥١٥، وعزاه لأحمد وأبي داود والنسائي وابن ماجه، الصحيحة رقم ٢٠٧٧.

٧ - الرعاية الدينية وحسن التوجيه:

وكما يهتم الزوج بسلامة جسم زوجته فعليه أن يهتم بسلامة دينها وخلقها وصحة اتجاهها، ويكون رائداً بصيراً وناصحاً واعياً، وليس من الأمانة ألا يعبأ الرجل بفراغ زوجته من الدين وجهلها به وانحرافها عنه، ولا يعنيه إلا استيفاء حقوقه، وتوفير الراحة والمتاع لنفسه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[٢] وفي حديث: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**». وفيه: «**والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته**»[٣].

البحث السادس:

آداب المعاملة في بيت الزوجية

الحياة الزوجية شركة رأسمالها الحب، منه الإنفاق، وهو مادة التعامل..

وهو حب في الله وفي مرضاته.. وما كان له دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل...

فبدافع الحب في الله يحلو للمرأة أن تعمل كل ما يرضي الزوج وتساعده على الارتقاء في مدارج التقى، وعلى التخلص من الشيطان ووساوسه.

وبدافع من الحب كذلك يكدح الرجل ويرضي زوجته، ويعمل على الارتقاء بها في مدارج التقى، ويعصمها من انفتاح قلب أو جارحة على خطيئة.. إنما التقيا على الإسلام، وتزوجا على سنة رسول الله ﷺ. وهنا الرسول يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، فإذا أحب المرء لنفسه الراحة

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٤٥٦٩، وعزاه لأحمد والشيخين وأبي داود والترمذي.

واللذة والأمن والغنى والكرامة والاحترام والمعونة الصادقة في شؤون الدنيا والآخرة.. بل وأحب من يؤثره على نفسه.. فإنه يجب كذلك أن يمنح الآخرين - وفي مقدمتهم زوجه أو زوجته - كل هذه الرغائب من الراحة إلى درجة الإيثار.

في ظل الحب لا تكون المشكلات ولا يستثقل عمل، «ولا تضيق نفس بواجب».

وفي ظل الإيمان بالله مُنزل الوحي على رسوله يكون التزام وصايا الله في الحياة الزوجية طاعة لله. والقيام بالواجب: الزوجة نحو الزوج، والزوج نحو الزوجة عمل عبادي يُسترضى به الله.. فالنهوض به إنما يكون في رضا وإخلاص، لا رغباً ولا رهباً من زوج أو زوجة من منطلق الحب.. والإيمان بأن آداب الحياة الزوجية المشروعة للزوجين، هي واجبات لله قبل أن تكون واجبات لأحد الزوجين.. تزدهر السعادة في البيت.. وعندما تختلف صور الواجبات أحياناً بالنسبة لكل من الرجل والمرأة فذلك ناشئ عن الاختلاف الذي جعله الله في طبيعة كل من النوعين: الذكر والأنثى، فالقوة البدنية، ومتانة الأعصاب، ورجحان العقل، واتزان العاطفة، وما إلى ذلك من خصائص الرجولة جعلت على الرجل أعباء وواجبات من نوع خاص.

والعواطف الانسيابية، والمشاعر الملتهبة، والخيال الواسع، والضعف والرقة والحمل والأمومة وحاجة الطفل إليها مدة طويلة وأمراض العادة الشهرية، وما إلى ذلك من خصائص الأنوثة جعلت للمرأة مسؤوليات من نوع خاص واستوجبت لها حقوقاً تقابلها كذلك.

وشأن الله في التاريخ والحياة كلها، وفيما بثه على الأرض من دابة أن تكون أعباء الحياة موزعة بين الزوجين الذكر والأنثى. بل وأصبح من البديهيات المحسوبة في قوانين النجاح أن توزع الاختصاصات، وتحدّد المسؤوليات، ولا يبغي أحد على الآخر ولا تنتقص كرامة واحد إلا بالخروج على دائرته أو

التقصير أو التجاهل لحدود الله التي وضعه فيها. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾(١).

ويمكن أن نتناول هذا فيما يلي:

١ - الطاعة للزوج:

يجب على الزوجة إطاعة زوجها فيما يأمرها به سراً وعلانيةً، حتى تكون قد قامت بما يقتضيه عهد الزواج، لأن الطاعة مجلبة للهناءة والرضا، والمخالفة تولد الشحناء والبغضاء، وتوجب النفور وتفسد عواطف الإخاء وتنشئ القسوة في قلوب الآباء.

وما من امرأة نبذت طاعة زوجها إلا حل بها الشقاء ولحقها البلاء. وكلما زادت طاعة الزوجة لزوجها ازداد الحب والولاء بينهما، وتوارثه أبناؤهما، لأن الأخلاق المألوفة إذا تمكنت صارت ملكات موروثة: يأخذها البنون عن آبائهم، والبنات عن أمهاتهن.

٢ - تربية الأولاد:

ومن واجبات الزوجة تربية أولادها، والحدب على صغار زوجها إن كان له صغار من غيرها. تلمح هذا من ربط القرآن المرأة بابنها ورعايته منذ مولده إذ يقول: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾(٢).

وفي الحديث: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» فالأب راع وهو مسؤول عن رعيته. والزوجة راعية وهي مسؤولة عن رعيتها.. ولا رعية للزوجة إلا أبناؤها وما في البيت من مال.

وقد امتدح النبي ﷺ نساء قريش معللاً فضلهن على غيرهن بأنهن: «**أحناهن على ولد**». فالمرأة التي تترك أولادها للخدم أو للشارع، إنما ترمي في الهاوية بمستقبلها وبمستقبل أبنائها، بل بمستقبل وطنها ومستقبل القيم الإنسانية، ورحم الله شاعر النيل إذ يقول:

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتـــهـــا أعـددت شـعـبـاً طـيـب الأعـراق

وكما قال نابليون بونابرت: الأم تهز الطفل بيمينها فتشل عروشاً بشمالها.

إن الطفل يتعلم من أمه لغة قومه. ويتعلم منها كيف يتحدث.. في صخب مزعج أو صوت خافت أو صوت معتدل؟ بل ويتعلم ما يصحب ذلك من إشارات ورسائل للتوضيح. الأم التي تملأ البيت صراخاً إنما تصب في هذا القالب المرذول من الصوت الصاخب أسلوب أبنائها في الحديث.. والأم الصادقة والتي تنكر ذاتها من أجل الغير تشوقاً لمرضاة الله وإيثاراً لما عنده، تورث أبناءها هذه الصفة التي يحتاجها الوطن أشد الاحتياج، والأم التي تحترم زوجها وتقدر أهل الفضيلة والدين، وتتحاشى الرذيلة وتنفر منها ومن صحبة أهليها.. تورث هذه العادة، أبناءها وبناتها.. فيشبون على الفضيلة نافرين من الرذيلة.. والأم التي تحرص على النظافة في نفسها وبيتها كما تحرص على ترتيب وتنظيم الأثاث وتنسيقه، إنما تزرع هذه العادة في أبنائها فلا يستثقلون أعباء النظافة والنظام، لأنهم سوف لا يجدون لهم راحة ولا يهنأ لهم مقام إلا إذا نهضوا إلى النظافة والنظام.

وذلك أن الأم لا ترضى لأبنائها أن يكونوا على غير أفضل صفات المكارم التي تحرص عليها، وعلى تنشئتهم عليها كذلك، ولذا صح أن يقال: الجنة تحت أقدام الأمهات، بمعنى أن في طاعتها والانصياع لنصائحها وتوجيهاتها اللفظية والفعلية ما يوصل إلى الجنة.

ومن أجل مسؤولية المرأة عن أولادها أبيح لكل من المرضع والحامل أن تفطر إذا شعرت أن الصيام يجهدها أو يجهد الطفل.

وجعل النبي كذب الأم على الطفل جريمة بالرغم من تسميتها «أكذوبة» أو «كذيبة».

إن الأم هي معهد التربية الذي يتربى فيه الطفل. وإذا قيل إن كل عظيم وراءه امرأة، فتلك المرأة أكثر ما تكون هي الأم.. وأمامي الآن صور لعظماء خالدين كانت الأم وراءهم، وكان لهم في عالم الفكر والتطوير السياسي والاجتماعي والديني آثار جلّى.

٣ - القناعة والحرص على مال الزوج:

قال الإمام الغزالي: وأهم حقوق الزوج على زوجه أمران: أحدهما الصيانة والستر، والآخر ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً.

وقد هم رجل من السلف بالسفر، فكره جيرانه سفره فقالوا لزوجته: لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ فقالت: زوجي - منذ عرفته - عرفته أكالاً، وما عرفته رزّاقاً، ولي ربٌّ رزاقٌ، يذهب الأكال ويبقى الرزّاق!!

ومن الواجبات عليها ألا تفرط في ماله، بل تحفظه عليه. قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرَّطْبَ من الطعام الذي يخاف فساده، فإن أطعمت - عن رضاه - كان لها مثل أجره. وإن أطعمت - بغير إذنه - كان له الأجر وعليها الوزر**» أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر.

وأخرج أبو داود: قالت امرأة: يا رسول الله، إنا كلٌّ على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا. فما يحل لنا من أموالهم؟ قال: «**الرَّطْب تأكلنه وتهدينه**».

وفي صحيح مسلم عن عائشة: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيته - غير مفسدة - كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب».

٤ - اقتصاد المرأة في بيتها:

قال المرحوم علي فكري: الاقتصاد، معناه حسن التدبير ووضع الشيء في موضعه.

وهو روح المعاملة، ودعامة الحياة الزوجية. وهو الوسط بين الإفراط والتفريط، وقد أمر الله به ونهى عن الإسراف والتقتير حيث قال ﷻ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

وقال ﷺ: «**ما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة**». وقال أبو بكر رضي الله عنه: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد.

وقال معاوية: حسن التقدير نصف الكسب، وهو نصف المعيشة. وقال أبو حنيفة: لا خير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عرضه ويصل به رحمه، ويستغني به عن لئام الناس. وربة المنزل هي المكلفة بتدبير شؤونه، ولا يغني الرجل كسبه شيئاً إذا لم تقتصد زوجته، فإن معظم المال يذهب في سرف النساء وخيلائهن، وإذا لم تكن الزوجة مقتصدة فقد عرضت حياتها وحياة أسرتها للشقاء والبلاء.

فالمرأة مسؤولة عن استخدام ما لديها من المال والوقت في خير الطرق، كما أن كسب المال من شأن الرجال. فإن أحسنت التدبير تمكنت من أن تعين زوجها، وتزيد سرور الأسرة ونعيمها.

وليس الاقتصاد معرفة استعمال الدرهم فحسب، بل يشمل الترتيب والنظام والعمل والعناية بكل أمور المنزل. فالملابس التي تعنى بها تطول مدة استعمالها، والأثاث الذي يُتعهد بالتنظيف وحسن الترتيب لا يبلى سريعاً. أما الزوجة المسرفة فهي عدوة لنفسها، ونكبة على زوجها. تهلك بيدها ثمرة أعماله، وكم من امرأة هدمت بيتها بسوء تصرفها، وكم من سيدة أحيت موات منزلها بحسن تدبيرها.

وليس احترام السيدة متوقفاً على غلاء ملابسها وكثرة حليها وجواهرها بل على جميل خصالها وحسن سمعتها واقتصادها.

هذا وإن ارتقاء شأن الأسرة وسعادة الرجل ومستقبل الأطفال متوقف على حسن تدبير ربة البيت وصلاحها. وقد أوصت سيدة ابنتها فقالت: لا تكلفي زوجك إلا ما يطيق طبقاً للأحوال، وارفعيه بيدك وتدبيرك عن مواطن الضعف والضيق، فحمل الصخور أخف من ثقل الديون.

إذا لم تكن في منزل المرء حرّة تدبره ضاعت مصالح داره

صور من الحياة الاقتصادية:

ذات الدخل المحدود تستطيع أن تحمي أسرتها ذل الحاجة إذا هي تريثت في شراء الفاكهة والخضراوات أول ظهورها. . ثم اشترت لأسرتها حاجاتها بعد ذلك بقليل، وتستطيع أن تتعرف مواسم تخزين السمن والبصل والبقول والليمون وصنع المربى من الفواكه عند كثرتها.

تستطيع أن تكسب قلب زوجها باقتصاد يرى الزوج ثمرته، فتنسج بهذا حول قلبه ستاراً حديدياً لا تنفذ إليه القيان الحسان.

٦ - الخدمة في البيت:

من أخص الأعمال الواجبة على النساء مباشرة أعمال المنزل وإدارة شؤونه وتدبيره.

وقد قضى النبي ﷺ على ابنته فاطمة بخدمة البيت، وعلى «عليّ» ما كان خارجاً من البيت من عمل. رواه الجوزجاني من طرق.

٧ - التّزيّن للزوج:

من الأسف أن تُرَى كثيراتٌ من السيدات يهملن الزينة والتجمل في كثير من حياتهن للزوج، وهذا تقصير فاحش، ربما كانت الزوجة لا تشعر به، لاعتقادها ارتفاع الكلفة بينهما. ولكن له تأثيراً سيئاً في نفس زوجها. ولا سيما إذا آنس منها التجمل والزينة قبيل خروجها لزيارة قريباتها وصديقاتها.

والحقيقة أن التجمّل لا يكون إلا للزوج تطييباً لخاطره، وهو واجب عليها وحقٌّ له لا يسقط وإن مضى الشطر الأعظم من الحياة.

وليس القصد من حض المرأة على التجمل لبعلها أن تضيّع وقتها الثمين أمام المرآة معجبة بجمال صورتها، أو بطول شعرها، أو باعتدال قوامها، فإن الإعجاب بالنفس دليل على ضعف العقل.

وإنما القصد حثها على النظافة والترتيب. وهو يتناول تسوية الشعر، وتنسيق الملابس على وجه خال من آثار التصنع والتكلف.

وما أرقى خلال المرأة: إذا أحست بحضور زوجها فهبت للقائه بأبهى مظاهرها من نظافة ثياب، وطلاقة وجه، وبسامة ثغر. لأنه ما من امرأة قابلت زوجها على هذا الوجه إلا حازت في قلبه المكانة العالية والمنزلة السامية.

٨ - النظافة:

النظافة للمرأة ألزم لها من الجمال، لأن الجمال لا يلبث أن يزول متى زالت نضارة الشباب.

أما النظافة فعادة باقية ما بقيت المرأة، ولذا حث عليها الإسلام.

وقد قال جان جاك روسو: وليس في العالم شيء ينفر منه الإنسان أكثر مما ينفر من المرأة القذرة.

ولا شك أن المرأة التي تهمل نظافة نفسها تعمل على إبعاد زوجها بيدها ليرتمي في أحضان أخرى نظيفة. إذ يجب على المرأة أن تنظف المنزل وجميع ما فيه من الأمتعة والأثاث، فلا يعشش العنكبوت ويتراكم الغبار عليها، وعليها بعد الفراغ من أعمالها اليومية أن تستحم قبل حضور زوجها من أشغاله، ثم تلبس ملابسها الفاخرة كما لو كانت في انتظاره ليلة الزفاف.

وقد أوصت امرأة ابنتها فقالت: يا بنيتي، لا تنسي نظافة بدنك فإن نظافته تحبب زوجك إليك، ونظافة بيتك تشرح صدرك، وتصلح مزاجك، وتنير وجهك، وتجعلك جميلة ومحبوبة ومكرمة عند زوجك، ومشكورة من أهلك ومن ذويك وأترابك وزائراتك. وكل من يراك نظيفة الجسم والبيت تطيب نفسه ويسر خاطره، هذا فضلاً عما للنظافة من تأثير في توطيد أركان الصحة والصفاء، وما للقذارة من أثر في جلب الأمراض والشقاء.

وكل هذا يجب أن يكون - إلى جانب الحكمة الواضحة منه - صادراً عن الاعتقاد بأنه استجابة لأمر الله، وطاعة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] حتى لا نحرم الأجر في الآخرة، ونقطف ثمار النظافة في حياتنا الأولى.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

ومما يندرج في باب النظافة نتف العانة أو انتيارها، أي إزالتها بالنورة وهي مسحوق يزال به شعر العانة. وكذلك من السّنن نتف الآباط، وتقليم الأظافر ويسن أن يكون كل ذلك يوم الجمعة. ويكره أن تبقى الأصابع دون قص الأظافر أكثر من عشرة أيام. وفي الحديث الشريف: «**مِنَ الفطرة حَلْقُ العَانَةِ، وتقليمُ الأظفارِ، ونتفُ الآباط، والختان**»[1]. ومعنى أن هذه الأشياء من الفطرة. أنها إذا فعلت اتصف فاعلها بالفطرة التي فطرَ اللهُ العبادَ عليها، وحثهم عليها واستحبها لهم ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها صورة.

جمال المرأة وتجملها مدرجة ميل الزوج وافتتانه بها، وقوام الزينة النظافة، ولتحذر المرأة كل الحذر أن يقع بصر الرجل منها - أعني زوجها - على شيء يشمئز منه وينفر، من وسخ أو شعث أو رائحة مستكرهة، أو شيء من هذا القبيل. يجب على المرأة أن تتجمل لبعلها. وذلك بتنظيف البدن وما يحيط بالبدن من ثياب، وتنظيف البدن بتنظيف البشرة بالماء، وهذا بإدمان المضمضة والاستنشاق والاستنثار - إي إخراج فضلات الأنف - وغسل اليدين إلى المرفقين وغسل الرجلين ومسح الرأس، أي العناية بنظافة الشعر، وهذا ما يعبر عنه في الإسلام بالوضوء، وبالاغتسال. وهو الذي يعبر عنه بالغسل من الجنابة. كغسل الجمعة والعيدين والتراويح. كما تكون النظافة بالعناية بالأسنان وبتسويكها وتخليلها وبتنقية العين وتكحيلها، وبتقليم الأظفار وتسويتها، وبتنظيف المغابن وإزالة ما بها، وبحلق العانة أو نتفها وما إلى ذلك من كل ما تعوزه النظافة من سائر أعضاء البدن، وعلى الأخص نظافة الفم، ويغني عن السواك استعمال الفرشاة سواء مع المعجون أو الصابون أو بدونهم بنيّة الاستياك، ثم الاهتمام بنظافة الفرج.

٩ - حُسْنُ الخُلق:

أجمع الحكماء على أن المرأة الحسنة الخُلق تستميل قلب زوجها وتجمع

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٨٠٧، وعزاه للبخاري.

حولها بنيها وذوي قرباها، ولا ينفر منها أحد ولا سيما إذا اقترن حسن الخلق بلُطْف المحادثة. وقد قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وألطفهم وأبرّهم بأهله**»(١).

وقال عمر بن الخطاب: لم يعط عبدٌ - بعد الإيمان بالله تعالى - شيئاً خيراً من امرأةٍ حسنة الخلق، ولم يُعط - بعد الكفر بالله تعالى - شيئاً أشد من امرأةٍ بذيئة اللسان، سيئة الخُلُق.

وقال بعض الأدباء: حسَنُ الخُلق، من نفسه في راحة والناس منه في سلامة وأمان، وسيئ الخلق من نفسه في عناء، والناس منه في بلاء.

١٠ - ترضية الزوج عند الغضب:

قال أبو الأسود الدؤلي لامرأته: إذا رأيتني غضبتُ فرضّيني، وإن رأيتك غضبت ترضّيْتُك، وإلا لم نصطحب.

وكان عند الحسن بن علي بن أبي طالب امرأة من قريش ضجرت منه يوماً فقال لها: أمرُك في يدك. (أي لها الخيار في البقاء في عصمته وفي أن تطلّق نفسها).

فقالت له: أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة فحفظته وأحسنت صحبته فلن أضيعه إذا كان في يدي ساعة من نهار، فأعجبه قولها وأحسن صحبتها. وإن مما يرضي الرجل الاعتذار إليه على الفور عندما يكون الخطأ من المرأة. فإن سقطت منه هفوة كان لا بد من الانتظار حتى تهدأ ثائرته، ثم يكون الحديث متلطفاً فيه إلى قلبه منفرداً. والاعتراف بالحق فضيلة. وكما قال الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

ومما هو عذر أقبح من الذنب: أن تقول المرأة لزوجها، أو المعتذر لمن وقع الخطأ في حقه: ألا يكفيك أن أعتذر، هأنذا قلت لك: «متأسفة».

إنه لغباء أن نتصور كلمة «متأسفة» تياراً كهربائياً يستأصل السرطان في

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ١٢٣٠ و ١٢٣١.

دقائق.. يجب الاعتذار، ثم يترك للمعتذر إليه فرصة تستريح فيها نفسه.. ويبحث في قلبه عن مكان يضع فيه هذا الاعتذار، فقد لا يكون في القلب مكان له تلك الآونة.

قال أحد الحكماء: «ليس لي على المسيء أكثر من اعترافه بذنبه» وهذا حق، ولكن لا يجوز للمعتذر أن يردد هذه الحكمة لمن يعتذر إليه... إنما يقولها غيره من الشفعاء له.

قالت سيدة لابنتها: لا تغضبي إزاء فلتة زلّ بها لسان زوجك عند غضبه، بل كوني رزينة متساهلة متسامحة ولا تقابليه بالمثل. فبذلك يدرك هفوته، ويأسف على زلته، وليكن حسن الظن وحسن التفاهم رائدكما فيزول كل ما يقع بينكما.

١١ - حسن معاشرة أهل الزوج:

الزوج فلذة كبد أمه، وهو أمانة أمه في يد زوجته، فوجب أن تتلطف بصاحبة الأمانة، وتجعلها دائماً مطمئنة على أنها لن تفقد أمانتها. وذلك يكون بالتودد إلى هذه الأم، وإظهار الاحترام لها باعتبارها أماً للزوجين، وأنها وسائر إخوة الزوج أبناء لهذه الأم، فلكل أخ حقوق الأخوة من الحب والتعاون والاحترام.

وهذا من شأنه كسب قلوب الأم والأخوة، وهو مما يسهل للزوجة الاستعانة بهم على ما عساه يحصل بينها وبين زوجها على مدى الأيام. فيكون لها منهم نعم الأزر والنصير.

١٢ - احترام مشاعر الزوج:

الزوج مرهف الحس: يحب زوجته عفيفة اللسان، لا تتحدث إلى غيره من الرجال، ويحب أن تشاركه وجدانه وأحاسيسه، وأن تكون له وحده. كما تحب هي أن يكون لها وحدها، فإذا ضمها مع زوجها مجلس لم تنبسط في حديثها مع غيره.. تكاد لا تكلّم إلا بإذنه. وفي غيبته تراعي شعوره، كاسماء زوجة الزبير حين أدركت غيرة الزبير، فرفضت أن تركب مع الرجال، بالرغم من أن الدعوة

إليها موجهة من رسول الله ﷺ. قال الإمام الغزالي: وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب، وليس البعل حاضراً لم تستفهم، ولم تعاوده في الكلام، غيرة على نفسها وبعلها. وتكون قانعة من زوجها بما رزقه الله. وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها؛ متنظفة في نفسها، مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها أنّى شاء، مشفقة على أولادها حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج.

ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها. ولا ينبغي أن تُؤذي زوجها بحالٍ. روي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه - قاتلك الله - فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا**» أخرجه ابن ماجه والترمذي. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

ومن احترام مشاعر الزوج ألّا يُعاب أحد بذم مظهر أو سِمَةٍ خلْقيّة تكون في الزوج: كالعرج أو العور أو الصمم، أو أي شيء قد يحرج الزوج لو أن الكلام كان موجهاً إليه شخصياً.

وقد يخطئ الرجل خطأ لا يجب أن يؤاخذ به، فمن الأدب ترك مؤاخذته به، وإنما بعد هدوء العاصفة يجب أن يبتدع حديث عن شيء مماثل يتضح منه وجه الخطأ حتى يدرك الزوج خطأه بأسلوب المقارنة الذاتية التي تنشأ طبعياً في نفس كل إنسان. وذلك رحمة به من الوقوع في جريرة المكابرة.. ولعله من أجل هذا قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيم ببيتٍ في ربض الجنة لمن ترك المِرَاءَ وإن كان محقّاً**»[1]. أي: أنا كفيلٌ له بذلك..

قد يعزّ على المرء أن يكون معه الحق ثم يترك الدفاع عنه، ولكن النفس العظيمة تتخلّى عن شهوة الانتصار الجدلي الذي هو لون من «كبرياء الذات»

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ١٤٦٤، وعزاه لأبي داود، والضياء، انظر الصحيحة (٢٧٣).

فتربط حوارها مع الآخر بهدف واضح مخلص هو الوصول بالآخر إلى الحقيقة. فإن كشف أنه أحال الحديث إلى جدل، وأنه يبغي باستمرار المناقشة شهوة الانتصار في جدل، أو أنه متشبث بخطئه العمد، فإن من العظمة أن يتصدق على ذلك المسكين بعدم توريطه في دفاع كاذب، وحبذا لو أشعره بذلك دون جرح له أمام آخرين، وأن يُلقّن درساً في أن الوقت هو الحياة، والحياة أعزّ من أن تبدد في جدل ليس وراءه طائل.

ومن احترام مشاعر الرجل ألّا يعاب أهله، بل وأن يُدافع عنهم في غيابهم. فذلك يرضي الزوج لأنه دفاع عن الزوج نفسه بطريق غير مباشر. بل وكالأهل أصدقاء الزوج الحميمون، وشيوخه وإخوانه في مذهبه الاجتماعي، لأن أخوة المبدأ لها لُحْمة كلُحْمة دم القربى وماء المصاهرة، وعيب المبدأ وتجريح رجاله عيبٌ وجرحٌ للزوج.

فإذا كان ثم ما يعيب شرعاً؛ عُرِض النصح في أسلوب استفهامي، حتى يدرك الزوج الحقيقة، ويصل إليها في رفق. وعلى الزوج مثل ذلك، وشعار الاثنين قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[1].

١٣ - شكر الصنيع:

كل إنسان يحب أن يرى تقدير إحسانه، وما أجمل كلمة «شاكرة» أو كلمة رسول الله ﷺ: «**جزاك الله خيراً**». تصدر إقراراً بالفضل لموليه.

إنها تغري بالمزيد من التفضل والإحسان، والإحسان بريد المودة ورباط القلوب. قال ﷺ: «**خير النساء التي إذا أعطيت شكرت، وإذا حرمت صبرت، تسرُّك إذا نظرت، وتطيعك إذا أمرت**».

وليس من الأدب أن يقال في الحياة الزوجية: لا شكر على واجب. فعلى فاعل الواجب ألا ينتظر الشكر من الناس ولكن على الناس أن يشجعوه على ذلك الخلق الطيب بالثناء عليه.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٩.

وشكر المرأة زوجها، والثناء عليه في حضوره وفي غيابه.. يزيده إعزازاً لامرأته؛ إذ أنها بثنائها عليه في غيبته عند أهلها وأصدقاء الأسرة.. تغلق الباب على الشيطان. وأثنت امرأة - لأمها - على كرم زوجها فقالت: يا أماه، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجزاء. وفي كتمان الشكر جحود لما أُوجب منه، ودخول في كفر النعم. إن الأولاد حين ينشأون يسمعون كلمة «أشكرك» عند تقديم كلمة طيبة؛ أو أي مساعدة، فإنهم يعتادونها خارج البيت.

وعندما يسمعون كلمة «آسفة» و«أعتذر»عندما تسقط من المرأة خطيئة فإنهم كذلك يعتادون هذا الخلق، ويتكوّن لديهم ميزان سليم، وحس مرهف يقدرون به المواقف المختلفة.

ورهافة الحس، واعتياد التقدير عادة تتكون، فتمتد إلى كل مسائل الحياة.

١٤ - الوفاء للزوج:

الزوجة الوفية حلم عزيز حلو عند الرجل، لا يحب أن تفتح عينه على فراقه.

ومن وفاء الزوجة ألا تفارق زوجها إن أصابته ضراء في ماله أو بدنه، وأن تظل تقاسمه الحياة في مرّها كما قاسمته إياها في حلوها، وقد قيل: «خير النساء المبقية على بعلها، فهي تؤثر راحة زوجها على راحة نفسها».

يحكى أن أعرابياً من بني عذرة شكا إلى معاوية بن أبي سفيان عامله مروان ابن الحكم بالمدينة، لرغبته في التفريق بينه وبين زوجته - على رغمها - لفقر نزل به بعد عز، ولرغبته في أن يتزوج منها لمكانها من الجمال. فلما حضرت أمام معاوية قال لزوجها مازحاً: فخيّرها بيننا. فقال الزوج في ثقة من زوجته: ذلك إليك يا أمير المؤمنين. فتحول معاوية نحوها وقال لها: يا سُعْدى، أينا أحب إليك؛ أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره، أم مروان بن الحكم في غضبه واعتدائه، أم هذا الأعرابي في جوعه وأطماره (ثيابه البالية)؛ فأشارت الجارية إلى ابن عمر الأعرابي وأنشدت تقول:

هذا.. وإن كان في جوع وأطمار أعزّ عندي من أهلي ومن جاري
وصاحب التاج، أو مروان عامله وكلٌّ ذي درهم منهم ودينار

ثم قالت: لستُ - والله يا أمير المؤمنين - لحدثان الدهر بخاذلته، ولقد كانت لي معه عيشة راضية، وأنا أحق من صبر معه على الضراء والسراء وعلى الشدة والرخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فأعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها. وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وألحقها بصدقات بيت المسلمين.

١٥ - العفّة والأمانة:

جاء في الأثر: من وقيَ شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وجب له الجنة، كما روي: «**مَن حفِظَ ما بين فَقْمَيْهِ ورجليه دخل الجنة**»(١).

إن عفاف المرأة هو الجوهر الذي تقوّم به تربيتها، والسلاح الذي تدافع به عن شرفها وكرامتها، وهو عندها بمثابة القوة عند الرجل.

وعفاف المرأة في الأسرة هو الركن الأول الذي تتوطد عليه دعائم التربية، والسبيل الأقوم الذي تصل به الفضيلة إلى قلوب البنات والأبناء. ولا فرق بين أن يكون العفاف في الأم فطرياً أو اكتسابياً لينتقل إلى نفوس بناتها فينشآن معه قويات الإرادة، عزيزات النفس، ويتخذنه دليلهن الصادق الأمين في طريق المستقبل حيث تسير الفتاة - غالباً - مدفوعة بقوة الوهم، مجذوبة بتيار الضعف النسائي، فإذا كانت عفيفة بالفطرة والنشأة استطاعت أن تقي نفسها طيش الأهواء وعمى الحب.

هكذا يكون العفاف سندها في الضعف، ومرشدها في الغواية، ومصباحها في الظلام، وزينتها مدى الأيام، وأساس سعادتها وسعادة أسرتها في المستقبل، ولا يتم للزوجين سعادة في الحياة، ولا يهنأ لهما عيش، إذا فارقتهما فضيلتا

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٢٠٢، وعزاه لأحمد والحاكم.

الأمانة والعفاف. والزواج الحقيقي لا يتم إلا باختصاص كل من الزوجين بالآخر، ولا سبيل إلى ذلك الاختصاص إلا بسلوك سبيل العفة. وفي انتهاك حرمة هذه العفة هدمٌ لسياج الأنساب، وفي هذا من الشقاء والبلاء ما فيه.

والزوجان على السواء مطالبان بتأدية هذه الأمانة العظمى، أمانة الحرص على الأعراض وسلوك سبيل الحياء. غير أن المتعارف عليه أن المرأة مطالبة بذلك أكثر من الرجل، لأن الله اختصَّها بالمحافظة على النَّسل في بطنها. وفي الحديث الشريف: «**الحياء حسنٌ ولكنه من المرأة أحسن**»(١).

ولا عيب من العيوب النفسية أو الجسمية يضيِّع هناء الزوجين ويذهب بسعادتهما ويمحو غبطتهما كخيانة المرأة للرجل في نفسها، فخير ما يصبو إليه الرجل في زوجته عفافها الذي هو سلاحها. وقد أشار الله إلى وجوب العفة والصون في كتابه في سورة النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾(٢).. الآيتين.. ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾(٣).

وقال ﷺ: «**إنّ لكلِّ دِينٍ خُلُقاً. وخُلُقُ الإسلام الحَياء**»(٤).

وقال ﷺ: «**إن شرَّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة مَن تركه الناس اتّقاء فُحشه**»(٥). أقول: وشر الزوجين من خافه الآخر اتقاء فُحشه.

وقد سُئلتْ عائشة رضي الله عنها: أي النساء أفضل؟ فقالت: «التي لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدي لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها والإبقاء في الصيانة على أهلها».

---

(١) جامع المسانيد: لأبي حنيفة، ج ٢/ ١٦٠.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٠.
(٣) سورة النور، الآية: ٣١.
(٤) صحيح ابن ماجه: للشيخ ناصر برقم ٣٣٧٠.
(٥) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٠٩٥.

١٦ - كيف نحافظ على عفاف المرأة؟!

قال المرحوم علي فكري: «لما كانت البيئة التي تنشأ فيها البنت والمؤثرات الخارجية تجعل التهذيب وحده غير كاف لتقويم أخلاقها، نظراً لأن الله خلق المرأة ضعيفةً وميالة إلى دواعي الشهوات. وَجَبَ أن يحافظ على البنت من كل ما ينشئ في نفسها تأثيراً سيئاً، وذلك بإبعادها عن كل ما يهيّج عواطفها تهييجاً تخشى عواقبه، فلا يصح أن تَغْشَى دور الملاهي والمراقص، كما أنه يحسن بها عدم قراءة الروايات الغرامية، وعدم الاختلاط بمن فسدت أخلاقهن من الفتيات.

ويُنصح أيضاً - لمصلحة الفتاة - ألا تجتمع بالمتزوجات من صديقاتها، أما الاختلاط بالرجال الأجانب فهو أسوأ ما يكون. ويتحتم ألا تختلط الفتاة برجلٍ غريب أو أجنبي.

والتذكير بالله وبالآخرة وما أعده الله فيها للشرفاء الأتقياء، أو للعصاة المنحرفين، هو أعظم الأسباب لوجود العفيفة والعفيف.

وقيل لبعض الأعراب، وقد طال حبه لجارية - فتاة -: ما كنت صانعاً لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله تعالى؟ قال: أخاف الله ولا أجعله أهون الناظرين، ولكن أصنع معها ما أصنع بحضرة أهلها: حديث طويل، ولحظٌ كليل - أي يغض بصره - وترك ما يكرهه الرب وينقطع به الحب.

ودخل رجل غيضة له فقال: لو خلوت هنا بفلانة فلم يرنا أحد، فسمع صوتاً ملأ الغيضة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]؟ وهذا كما قال نابغة بني شيبان:

إنّ مَنْ يركب الفواحش سرّاً ... حين يخلو بسرِّهِ غير خال
كيف يخلو وعنده كاتباه ... شاهداه وربُّهُ ذُو الجلال

وقالت سلامة المغنية لعبد الرحمٰن بن أبي عمار الجشمي - الذي سماه

(١) سورة الملك الآية: ١٤.

أهل مكة قسّاً، لكثرة عبادته، وكان معجباً بغنائها - يا عبد الرحمن: أنا واللهِ أحبُّكَ! فقال: وأنا والله أحبُّكِ! قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك. قال: وأنا والله أحب ذاك. قالت: فما يمنعك؟ فوالله إنّ الموضع لخال؟ قال: إني سمعت الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وأنا أكره أن تكون خلّة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النّسك!!.

البحث السابع:

أدب المرأة في حنانها[2]

أُلصق من الحياة بالمرأة حنانها المشهور، ولا سيما الحنان للأطفال من أبنائها وغير أبنائها. وهذه صفة من صفات الغرائز، توجد في إناث الأحياء، ولا تمتاز فيها أنثى الإنسان إلا على قدر امتياز العاقل على غير العاقل في كل ما يشتركان فيه، فليس الحنان الطبيعي بصالح لتقدير خلق الرحمة في المرأة حين يتصل بإملاء الوجدان الأدبي وسلطان الضمير، وإنما يصلح لتقدير هذا الخلق فيها أن نقارن بين عطف الرجال وعطف النساء على الأطفال من أبناء الآخرين، فربما شوهد الرجل وهو يعطف على أبناء زوجته من غيره كما يعطف على أبنائه ويسوّي بينهم في البرّ والمعاملة، ولو من قبيل التجمل ورعاية الشعور، وتسلك المرأة غير هذا السلوك في معاملة أبناء الزوج من غيرها، فلا ينجو هؤلاء الأبناء أحياناً من هذا التعذيب والتشفي وتعمد الإذلال والإيذاء، ولا يطمع الكثيرون منهم في السلامة أو في التظاهر بالمساواة بينهم وبين إخوانهم في البيت، بل يحدث كثيراً أن يقع التفضيل والإيثار عمداً وجهرة لإمعان في الإساءة والانتقام

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٢) المرأة في القرآن: لعباس محمود العقاد، ص: ٣٢-٣٣، ط. دار الهلال - القاهرة.

من الأم المجهولة الغائبة، وقد تكون في عداد الأموات. وهذا كله كان حرياً أن ينعكس بين الرجال والنساء، حيث يتصل على الخصوص بتكاليف الإنفاق والحماية، لأن الرجل هو الذي ينفق من ماله ويتكلف من وقته وجهده، ولعله حيث يرجع الأمر إلى خلة الأنانية، أولى أن يطمع في الاستئثار بالمرأة لنفسه، غير مشارك فيها ولا مستريح إلى ما يذكره بتلك المشاركة من قبل. وهو في الحق لا يبرأ من الأنانية ولا يقل في هذه الخلة على المرأة، ولكن الفارق بينهما فيها أنها في الرجل خلة يروضها وازع الأخلاق، وهي في المرأة خلة تتحكم فيها الغريزة، ولا يقوى عليها وازع الفكر والضمير.

أما النظافة فليست هي من خصائص الأنوثة إلا لاتصالها بالزينة، وحب الحظوة في أعين الجنس الآخر. ولكن عمل الغريزة فيها أنها أصعب على المرأة وأيسر على الرجل، لأن المرأة تتكلف في سبيل النظافة ما ليس من الضرورات المتكلفة عند الرجال، لما يعرض لها في وظائف الحمل، وعادات الجسم المتكررة، وأخلاط الولادة، ولوازم الحضانة وما إليها، فلو لم تكن النظافة «قيمة خلقية» مفروضة عليها بإشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة، لكان استقلالها بنفسها وشيكاً أن يضعها موضع الإهمال والاستثقال. ويرجع إلى هذه الحالة في المرأة أنها أصبر من الرجل على التمريض، لأنها أصبر على الحضانة، وأصبر على أخلاط الجسد، كما يرجع إليها أن إحساسها بالعطف على المصابين مخالف في طبيعته لإحساس الرجل.

وليس في أخلاق المرأة المحمودة خلق أخص بها وألصق بأنوثتها من هذه الخلائق الثلاث: وهي الحياء والحنان والنظافة، ومعولها فيها - كما رأينا - على وحي الطبع أو وحي الرجل. وأحرى أن يكون ذلك ديدنها في جملة الصفات التي يشترك فيها الجنسان مع اختلاف خطهما منها، ولو كانت من الصفات التي تولاها الرجال منذ القدم، ويتولونها إلى اليوم، كشجاعة القتال في ميادين الحروب، فقد يوجد من النساء من هن مثلٌ في الشجاعة، ويوجد في الرجال من هم مثلٌ في الجبن، ولا ينفي ذلك أصل القوامة في نشأة الأخلاق

وتعميمها، فإذا نشأ الخلق وعم في العرف لم يمتنع أن يتخلق به آحاد الجنسين على تفاوت في نصيب الرجال والنساء.

البحث الثامن:

خصائص الأمومة وتضحية الأم[١]

إن الأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة، وأعمال رفيعة، وصبر على الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء. هي التكيف النفسي والعصبي والفكري الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع، كلاهما متمم للآخر متناسق معه، بحيث يكون شذوذاً عجيباً لو وُجد أحدهما في غيبة من الآخر.

وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر، التي تجعل الجانب العاطفي لا الفكري، هو النبع المستعد أبداً بالفيض، المستجاش أبداً بأول لمسة، كل ذلك من مستلزمات الأمومة، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير، الذي قد يسرع أو يبطئ وقد يستجيب أو لا يستجيب، وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا إبطاء.

فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة وهدفها المرسوم.

والرجل إلى جانب آخر مكلّف بوظيفة أخرى، ومهيأ لها على طريقة أخرى.

مكلف بصراع الحياة في الخارج، سواء كان الصراع هو مجابهة الوحوش في الغابة، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض أو نظام الحكومة وقوانين

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فايز ص: ٣٠-٣٣، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

الاقتصاد، كل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده من العدوان.

هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة في المنبع المستجاش، بل ذلك يضرها ولا ينفعها، فالعاطفة تتقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض. ولا تصير على اتجاه واحد إلا فترة، تتجه بعدها إلى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة، ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة تحتاج في تنفيذها إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت وإنما يصلح لذلك الفكر فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة وليس المطلوب منه هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأساليب للوصول إلى الهدف المنشود وسواء كان المقصود هو صيد فريسة، أو اختراع آلة، أو وضع خطة اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب، أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج إلى أعمال الفكر، ويفسد تقلب العاطفة.

ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح.

وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة، فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرجل في عمله، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال. في حين أن المرأة تستقر في علاقاتها تجاه الرجل، وحينما تتجه إليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويتدبر الخطط ويرتب الملابسات، وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون دقة، ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها. بينما هي لا تستقر في العمل، إلا أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الأنثوية كالتمريض، أو التدريس أو الحضانة، أما حين تعمل في المتجر فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها بحثاً عن الرجل هناك.

ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد. وما أن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك

المرأة عملها لتهب نفسها لبيتها. إلا أن يحول ذلك عائق قهري كحاجتها إلى المال.

ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين؛ ولا معناه أن كلاً منهما لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر.

فالجنسان إذن خليط، وعلى نسب متفاوتة. فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال... وإذا وجد رجل يصلح للطهي وإدارة البيوت أو الإشراف الدقيق على الأطفال أو الحنان الأنثوي، أو كان سريع التقلب بعواطفه ينتقل في لحظة من النقيض للنقيض؛ فكل ذلك أمر طبيعي، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان كل جنس. ولكنه خلو من الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء.

فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة، وهل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة على وظيفتها الطبيعية، تغنيها عن طلب البيت والأولاد والأسرة؟ وتغنيها عن طلب الرجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل! بصرف النظرة عن شهوة الجنس وجوع الجسد؟.

إنّ مزيّة الإسلام الكبرى أنه نظام واقعي، يراعي الفطرة البشرية دائماً ولا يصادمها أو يحيد بها عن طبيعتها.

وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها، ويصل في ذلك إلى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام، ولكنه في تهذيبه لا يدعو لتغيير الطبائع، ولا يضع في حسابه أن هذا التغيير ممكن، أو مفيد لحياة البشرية حتى إذا أمكن! وإنما يؤمن بأن أفضل ما تستطيع البشرية أن تصل إليه، هو ما يجيء تمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها من مستوى الضرورة إلى مستوى التطوع النبيل. وهو يسير في مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر فيسوي بينهما حيث تكون التسوية هي منطق الفطرة الصحيح، ويفرق بينهما كذلك حيث تكون التفرقة هي منطق الفطرة الصحيح!!..

والتضحية عند الأم من أبرز خصائص الأمومة!!..

وهي فضيلة لا يُقْدِم عليها الإنسان كل يوم، ولا يقدم عليها بغير دافع شديد من وحي الفطرة أو من وحي الضمير.

ولكنها من وحي الفطرة أعم وأنفذ من وحي الضمير، لأن سلطان اللحم والدم عميق القرار في بواعث النفوس. ومن ثم كانت المرأة أقرب من الرجل إلى التضحية في وظائفها النوعية، لأنها تستمد تضحيتها من غرائز الأمومة، وتموت في سبيل الذرية، كما تموت بعض إناث المخلوقات. ولا تسهل التضحية على الرجل بهذه السهولة إلا إذا ارتقى فيه وحي الضمير إلى مرتبة الدوافع الفطرية المودعة منذ الأزل في غرائز الأحياء!.

obeikandl.com